

## "القبالة"

### هذه الصرعة الجديدة

#### بقلم الأخت: أدما حبيبي

مادونا المغنية الأمريكية المشهورة باتت تضع خيطاً أحمر حول معصمها كما يفعل معتقو فلسفة القبالة، لأنها فعلاً جادة بشأن معتقداتها الجديدة. ولقد زارت مادونا في السنة الماضية البلاد المقدسة زيارة روحية لمدة خمسة أيام لممارسة طقوس فلسفة "القبالة" التي اعتنقتها مؤخراً. وهناك ألقت نظرة على حائط المبكى في البلدة القديمة بالقدس من على بُعد تحت جناح الظلام تجنباً للإزعاج الذي قد يسببه لها المصورون الذين كانوا بانتظارها هناك. ومكثت مادونا التي بدت منزعةً داخل سيارتها أمام البناء الذي يضم حائط المبكى ولوحت بيديها محاولة إبعاد الصحفيين. ثم انطلقت بها السيارة بعد دقائق تحت حراسة أمنية مشددة. وهكذا انضمت مادونا إلى نحو ألفي شخص آخرين من معتقي هذه الفلسفة من مركز القبالة الذي يتخذ من لوس أنجلوس مقراً له للاحتفال ببداية العام اليهودي الجديد. أما الاتهامات الجديدة التي تُكال لمادونا بأن هذا ليس سوى نوع من ولع المشاهير بما هو جديد، فهي تثير ضيقها الشديد.

صرعة جديدة تُضاف إلى الصرعات الأخرى الكثيرة التي يتحلّى بها عصرنا هذا. لكن ما هي القبالة وماذا تعني؟ تعني كلمة قبالة في اليهودية ما تمّ تسليمه. والقبالة كتابات ترجع إلى العصور الوسطى وتعاليم شفوية تصف الله والإنسان وتكشف أسرار الخلق. وارتأت مادونا أن تتخرط فيها عساها تجد ما تفتش عنه من سمو روحي واختبار يجلب لها الطمأنينة والسلام الداخليين.

وفي كلّ يوم يمرُّ نسمع أخباراً عن معتقدات واعتقاقات جديدة وقديمة تأخذ حيزاً جديداً وتحتلُّ مركزاً جديداً يسبي عقول وقلوب أناس يفتشون عن كلِّ ما هو مثير. ويبقى الإنسان يسعى ويجاهد علّه يجد ضالته المنشودة التي هي السعادة الداخلية وراحة النفس والضمير.

وهنا أذكر ما كتبه لي مرةً أحدُ الإخوة المؤمنين المعروفين في كنيسة دمشق - إذ كنتُ قد ارتبطت بصداقة حميمة مع بناته من خلال المدرسة وقد أصبحت العائلة فيما بعد ذات قُربى لي عن طريق الزواج- عندما أعطيته أتوغرافي الخاص كعادة كل الفتيات في المدرسة في ذلك الحين، لكي يكتب لي عليه فيبقى كلامه ذكراً على هذا الدفتر الصغير. فكتب لي هذه الكلمات: تبقى النفس

عطشى وتتجه صوب اتجاهات كثيرة ظناً منها أنها ستجد فيها الارتواء فلا تجد وعبثاً تحاول. ولكن النتيجة سرابٌ في سرابٍ وعطشٌ فوق عطش وجوعٌ فوق جوع. فتبقى حيرى مضطربة إلى أن تتَّجه باتجاه الصخرة المضروبة حيث تفجَّرت منها ينابيعُ الحياة فتجد في يسوع المسيح المصلوب ضالَّتْها المنشودة. فتحنى لتشرب وتشرب فتشرب وترتوي "فتزهر كالسوسن ويكون بهاؤها كالزيتونة ولها رائحة كلبنان وكسروة خضراء." وختم كلماته بهذه الآية قائلاً: "من هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفهم حتى يعرفها."

أجل فمن هو حكيم حتى يفهم هذه الأمور وفهم حتى يعرفها. لأن الحكمة في هذه الأيام أخذت طابعاً مختلفاً عن السابق وغلقت بمفاهيم جديدة، وصار الحكيمُ الحكيم هو كل مَنْ يبتكر شيئاً جديداً أو يعتنق ما هو مثير وغريب. والعجيب هو أنَّ العجائب مقيمةٌ أبداً فينا وفوقنا وتحتنا وحولنا وأننا لا ننفكُ نطلب عجيبة، على حدِّ قول ميخائيل نعيمة الأديب اللبناني المعروف. وكما تفتشُ مادونا على اختبار روحي جديد في كتاباتٍ ترجع إلى العصور الوسطى وتعاليم شفوية تصف الله والإنسان وتكشف أسرار الخلق، هكذا يفتش الكثيرون على اختباراتٍ روحية سامية ترفعهم إلى عالمٍ آخر، هو عالم الروح عساهم يدركون حقيقة هذا الكون وأبعاده العجيبة. وليس هذا فحسب بل نرى الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله أصبح يخلق وفي كلِّ يوم إلهاً جديداً حسب مداركه وميوله حتى بات عددُ الآلهة في الأرض موازياً عدد سكانها.

وهنا تحضرني هذه الحادثة في كلمة الله المقدسة التي هي أثبت وأبقى ، والتي دوَّتها لنا البشير متى بوحى من روح الله القدس في الإنجيل والفصل الثاني عشر منه إذ يقول: "حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين يا معلم نريد أن نرى منك آية. فأجاب وقال لهم جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان. وهوذا أعظم من سليمان ههنا." (متى ١٢: ٣٨-٤١)

أجل، أجيالٌ أنت وأخرى تأتي، والكلُّ يطلب معجزةً أمام عينيه لكي يؤمن ويصدق مع أنَّ هذا الطلب ينفي ماهية الإيمان الذي هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى. والمعجزة المعجزة هي التي أشارت إليها كتبُ العهد القديم، التوراة وأسفار الأنبياء مجتمعةً، بالرموز والنبوءات. أشارت هذه كلها إلى نفس الشخص العجيب الذي سيأتي من السماء إلى عالم البشر وسيتمُّ خطة الله تعالى في إظهار خلاصه للبشرية جمعاء من كبيرها إلى صغيرها دون فرق. هذا الشخص العجيب والمنتبأ عنه أتى ليتم الوعد ويموت على الصليب لكي يرفع بجسده عقاب خطايانا جميعاً ليس خطايا المؤمنين به فحسب، بل خطايا كلِّ العالم أيضاً. هذا هو الذي قال عن نفسه : أنا هو الطريق والحق والحياة. لا أحد يأتي إلى الآب إلا بي. أنا هو الباب إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل

ويخرج ويجد مرعى. أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا.

أجل هذه هي معجزة الدهور، وآية الآيات وعجيبه العجائب. المعجزة هي أن يظهر الله في الجسد ويصير إنساناً مثلنا فيشعر ويحس بكل ما يشعر ويحس به الإنسان. لكن، من دون خطية لكي يستطيع بالتالي أن يصير ذبيحة وكفارة عن خطية الإنسان. هذه هي الآية العظمى التي ظهرت منذ ألفي عام، الآية التي لازالت إلى اليوم تخلّص الملايين من الناس من الموت الأبدي. فهل لازلت تطلب آيةً يا صديقي؟ وهل لازلت تفتش وتسعى للحصول على ما يُسعدك ويفرّح قلبك من الداخل؟ أرجو أن لا يكون سعيك هذا سراباً في سراب وعطشاً فوق عطش وجوعاً فوق جوع كما كتب قريبي العزيز ناصحاً. بل أرجو ألا تتجرف وراء صرعات المشاهير الواهية وبدع هذه الأيام الجوفاء. لأن الله بعدما كَلَّمَ الآباء في الأنبياء قديماً بأنواع وطرق شتى، كَلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه. الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين الذي وهو بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كلّ الأشياء بكلمة قدرته بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي.

هذه هي آية الآيات أنّ كلمة الله الأزلي أحبّني أنا و أسلم نفسه لأجلي ليمنحني هذا الخلاص المجاني. هذا الخلاص الذي طالما فتنّس وبحث عنه أنبياء صار في متناول كل إنسان بغض النظر عن معتقده أو طائفته أو ديانتته التي ولد وترعرع وشبّ عليها. فهل تتوقف صديقي عن البحث والاستقصاء والسعي لأن الذي أحبّك هو الوحيد الذي مات لأجلك. أجل هو الوحيد الذي مات من أجلك ومن أجلي لأنه لم يقدم على هذا الفعل أحدٌ غيره قط. أن الأوان لكي تقيّم معتقدك وتفكر بما ورثته عن أهلك، ليس لكي تتبنّى معتقدات جديدة أو تتبع صرعات حديثة، لكن لكي تصل إلى الحق الذي هو وحده الرب يسوع المسيح. ووحده يستحق كل مجد وكرامة وسلطان إلى الأبد. عندها ستهتف وتنشد وتقول مع المرنم:

**مستحق كل المجد يا يسوع**

**كل ركبة تسجد ليك**

**واللسان يعترف بيك**

**مستحق كل المجد يا يسوع**

\*\*\*